فتح مصر

حسب رواية يحيى النحوي

(تابع ما قبلهُ)

الفصل المئة والتاسع عشر

وكانت مصر في تلك الايام فريسة للشيطان فان الخلاف كان شديداً بين سكان الوجه البحري فانقسموا الى قسمين قسم مع ثيودورس وقسم يريد الانضمام الى العرب وكان اصحاب الفرقة الواحدة يوقعون باصحاب الفرقة الاخرى وينهبون اموالهم ويحرقون قراهم . والعرب لا يأمنونهم

ووجه عمرو الى الاسكندرية جيشاً من العرب فاستولى على ضاحية كريون وكان عليها ثيودورس فذهب بحاميتها الى الاسكندرية واخذ العرب يهاجمون المدينة لكنهم لم يتمكنوا من الاقتراب منها لان حاميتها كانت ترميهم بالحجارة من اعالي الاسوار فارجعتهم الى مسافة بعيدة عنها

وكان القتال قائماً بين اهالي كورة مصر واهالي الوجه البحري فجرت بينهم مواقع عديدة ثم اصطلحوا بعد زمن قصير . لكن بعد انتهاء هذه الفتنة حرك الشيطان فتنة اخرى في مدينة الاسكندرية فان عاملها دومنتيانوس وميناً قائد الجنود فيها كانا متخاصمين طمعاً بالرئاسة ولغايات اخرى وانتصر القائد ثيودورس لميناً لانهُ كان غير راضٍ عن دومنتيانوس لفراره من نقيوس وتركه الجيش . وكان مينا ايضاً حانقاً على افدوقيانوس اخي دومنتيانوس لانهُ بالغ في الشدة على المسيحيين بسبب ايمانهم في زمن الاضطهاد على غير رضى مينا . فجمع دومنتيانوس حولهُ انصار الحزب الازرق وضم مينا اليهِ انصار الحزب الاخضر[1] والجنود الذين في المدينة . . . .

ولما توفي قسطنطين ابن هرقل جلس هرقل الاصغر مكانهُ وهو اخوهُ من ابيهِ . . . . واعاد هرقل قيرس من منفاهُ وارسلهُ الى الاسكندرية ومعهُ جماعة من آباء الكنيسة وفوض اليهِ عقد الصلح مع العرب والكف عن قتالهم واقامة حكومة مناسبة لمصر وسافر معهُ قائد الجيش قسطنطين وكان قبلاً قائد الجيش الوطني . . . .

---

(١) هما حزبان من الرومان

الفصل المئة والعشرون

ولم يكن فيرس البطريرك الخلقيدوني هو وحدهُ الراغب في الصلح فاجتمع الاهالي والحكام ومعهم دومنتيانوس وتباحثوا هم والبطريرك فيرس في عقد الصلح مع العرب

وكان رجال الدين كلهم ضد هرقل الاصغر قائلين انهُ ليس من العدل ان يكون الامبراطور الجالس على العرش ثمرة زواج فاسد وان الملك يجب ان يعود الى ابناء قسطنطين الذي ولدتهُ افدوقيا ورفضوا وصية هرقل الاكبر. فلما رأى والتينوس ان الشعب كلهُ معادٍ لمرتينا واولادها اخذ مبالغ كبيرة من المال من خزينة الحكومة في فيلاغريوس ووزعها على الجنود وحرّضهم على مارتينا واولادها فكف الجنود حينئذٍ عن قتال العرب وانقلبوا على مواطنيهم . وانفذ رسولاً الى رودس خفية لايقاف الجنود التي سافرت مع البطريرك فيرس واعادتها الى العاصمة واوعز الى ثيودورس [1] ان لا يسمع لاقوال مارتينا ولا يطيع اوامرها واوامر اولادها وارسل اوامر مثل هذه الى افريقية وغيرها من الولايات التابعة للمملكة الرومانية. فسرّ القائد ثيودورس جدًّا بهذه الاخبار وحفظها سرًّا وسار من رودس (ومعهُ فيرس) خفية في الليل قاصداً المدن الخمس [2] لكن ربان السفينة وكان وحدهُ مطلعاً على سرّ قصدهِ خاف ان الريح ضدهُ فاوصلهُ الى الاسكندرية ليلاً في السابع عشر من شهر مسكرم وهو يوم عيد الصليب المقدس فهرع سكان المدينة الرجال والنساء الصغار والكبار الى لقاء البطريرك فيرس وكان سرورهم عظيماً برجوعهِ

وذهب ثيودورس خفية مع البطريرك الى دير رهبان تبنّسي [3] واقفل باب الدير ثم ارسل الى ميناء وولاهُ القيادة وطرد دومنتيانوس من المدينة ففرح والناس يصرخون وراءهُ اخرج من المدينة

ولما ذهب البطريرك فيرس الى كنيسة قيساريون الكبرى فرش الناس الطريق كلها بالبسط واخذوا ينشدون الاناشيد تعظيماً لهُ وكان الازدحام شديداً فداس الناس بعضهم بعضاً ولم يصل البطريرك الى الكنيسة الاَّ بمشقة عظيمة (قالوا عظة) عظَّم فيها البئر التي وجد فيها الصليب المقدس وكان معهُ ايضاً الصليب المقدس الذي في دير التبنّسيين وهو الصليب الذي

---

(١) هو ثيودورس القائد العام كان هرقل قد استدعاهُ الى القسطنطينية ليستشيرهُ في امر مصر ثم عند رجوع البطريرك فيرس عُاد معهُ الى مصر (٢) المدن الخمس ولاية رومانية تدعى الآن برقة عاصمتها مدينة ابي غازي (٣) تبنسي مكان قرب دندره في صعيد مصر بقرب ابيدوس القديس فاخوميوس وكان طوبانيا المرسان دير في الاسكندرية

ارسلهُ اليهِ هرقل مع القائد يوحنا قبل تنيهِ . ثم بدأ القدّاس فعوضاً عن ترتيل المزمور المخصص لذلك اليوم وهو « هذا هو اليوم الذي صنعهُ الرب نبتهج ونفرح فيهِ » انتخب الشماس احتفالاً بالبطريرك وتهنئة لهُ برجوعهِ نشيداً آخر لا ذكر لهُ في الفروض فلما سمعهُ الناس قالوا هذا النشيد مخالف للطقوس وهو شؤم على البطريرك فيرس فانهُ لن يرى عيد القيامة مرة اخرى في الاسكندرية . واعاد الرهبان والمؤمنون من الحاضرين هذه النبوة امام الناس قائلين انهُ عمل مخالف للشعائر الدينية فلم يصدقهم احد

وتوجه البطريرك قيرس بعد ذلك الى بابليون لطلب الصلح من العرب بعرضهِ عليهم دفع الجزية وابطال الحرب فاحسن عمرو وفادتهُ وقال لهُ لقد احسنت تجيئك الينا فاجابهُ قيرس لقد وهبكم الله هذه البلاد فلا يكن عداء بينكم وبين الروم بعد الآن ولم يكن بيننا وبينكم عداوة قبلاً . فتعاهد الفريقان على تعيين مقدار الجزية والمهادنة احد عشر شهراً فلا يأتي العرب فيها عملاً بل يلزمون اماكنهم . وان الجنود التي في الاسكندرية تسافر بحراً وتأخذ معها امتعتها واموالها ومن شاء من الجنود العودة برّاً يدفع الجزية شهراً وان لا يعود جيش من الروم الى مصر بعد الآن . وان يبقى من الروم مئة وخمسون جندياً وخمسون من الاهالي رهينة عند العرب . وان يسالم العرب الروم ويمنع الروم عن قتال العرب ولا يستولي العرب على كنائس النصارى ولا يتداخلوا في شؤونهم . وان يسمحوا لليهود بالاقامة في الاسكندرية

وعاد البطريرك بعد هذه المفاوضة الى الاسكندرية واخبر بها ثيودورس والقائد قسطنطين وطلب منهما ان يبلغا هذه الشروط الى هرقل ويعضداهُ عندهُ . ودخل رؤساء الجيش واهالي الاسكندرية ومعهم ثيودورس على البطريرك يحيّونهُ فاخبرهم بالعهد الذي عقدهُ مع العرب وطلب منهم قبولهُ . واتفق ان العرب وصلوا حينئذٍ الى الاسكندرية وهم آتون لاخذ الجزية وكان اهالي الاسكندرية يجهلون العهد الذي عقد معهم فظنوا انهم قادمون لقتالهم فاستعدوا لذلك . على ان الجنود والقواد قالوا يستحيل علينا قتال العرب والاولى بنا اتباع نصيحة البطريرك قيرس فهاج الشعب حينئذٍ على البطريرك يريدون رجمهُ فكلمهم المعرضين منهم قائلاً قد عقدت الصلح لانقذكم انتم واولادكم وكان يتوسل اليهم وهو يذرف الدمع والحزن ملء فؤادهِ . فخجل اهالي الاسكندرية وجاؤوا باموالهم ليعطيها للعرب جزءاً من الجزية التي ضربت عليهم

اما المصريون الذين كانوا قد فرّوا الى الاسكندرية خوفاً من العرب فانهم طلبوا من البطريرك ان يتوسط لهم عند العرب ليسمح لهم بالرجوع الى اوطانهم وقالوا انهم راضون بحكم

العرب عليهم فتوسط لهم قيرس كما طلبوا وهكذا دخلت مصر كلها في حوزة العرب مصر الوسطى والوجه البحري . وزاد العرب الخراج على مصر ثلاثة اضعاف

وكان هرقل قد ولّى رجلاً اسمهُ ميناس على الوجه البحري وهو رجل جاهل مقتر بنفسه شديد الكره للمصريين فلما فتح العرب البلاد افرّوهُ في ولايته وولوا رجلاً آخر اسمهُ شنوده على الريف ورجلاً اسمهُ فيلوكسينوس على اركاديا اي الفيوم فكان هؤلاء الثلاثة يحبون العرب ويكرهون المسيحيين فاجبروهم على تقديم العلف للدواب وتقديم اللبن والعسل والفاكهة والبقول واشياء كثيرة غيرها وكان المصريون يطيعون اوامرهم خوفاً وارغمهم العرب على حفر خليج طريانس الموصل بين النيل والبحر الاحمر وكان مقفراً منذ زمان قديم (١)

ولما استتب الامر للعرب في مصر اغار عمرو بجنوده على المدن الخمس فقهرها وغنم منها اموالاً كثيرة واستاق عدداً كبيراً من الاسرى وفرّ ابو ليانوس نائب المدن الخمس هو وجيشهُ وحكام الولاية الى توخيرا وكانت منيعة جداً فعاد العرب الى مصر بالغنيمة والاسرى

واغتم البطريرك قيرس كثيراً لما توالى على مصر من المصائب فان عمراً انزل الشدة على المصريين ولم يتم بالعهد الذي عقد معهُ . وثقلت الهموم على قيرس فاصيب بالدوسنطاريا في يوم عيد النخل وتوفي خميس الفصح في الخامس والعشرين من شهر مغايت كما تنبأ المسيحيون فانهُ لم يبقَ حياً الى عيد القيامة المقدس وكان ذلك في زمن قسطنطين هرقل (٢)

ولم يستطع القائد والتيودوس معاونة المصريين في شيء فبقي هؤلاء ولا سيما اهالي الاسكندرية منهم هدفاً لسوء معاملة العرب فرزحوا تحت اثقال الضرائب التي فرضوها عليهم . وكانت اموال المدينة مخبأة في جزائر البحر عشرة اشهر

وسافر بعد ذلك ثيودورس نائب الملك وقسطنطين قائد الجيوش والجنود الذين بقوا معهما كذلك الجنود الذين كانوا رهينة في ايدي العرب الى الاسكندرية . وبعد عيد الصليب في العشرين من شهر حمله وهو عيد القديس ثيودورس اقاموا الشماس بطرس بطريركاً واجلسوهُ على الكرسي البطريركي . وارتحل ثيودورس من الاسكندرية في العشرين من شهر مكرام ومعهُ الجنود والقواد وركب البحر الى قبرس ودخل عمرو امير العرب مدينة الاسكندرية بلا قتال ورحّب به الناس على ما هم عليهِ من الشقاء والغم

(١) هو منبع امير المؤمنين وصفناهُ في مقالتنا عن ترعة السويس في الصفحة ٤٦ من المجلد السادس والثلاثين من المقتطف (٢) صوابها قسطنطين بن قسطنطين

الفصل المئة والحادي والعشرون

وعاد الانبا بنيامين بطريرك المصريين الى الاسكندرية بعد فرارهِ من الروم ثلاث عشرة سنة فزار كنائسهُ كلها وقال الناس ان هزيمة الروم ونصرة العرب بسبب ظلم هرقل وارهاقهِ الارثوذكسيين . هذه هي الاسباب التي اضرّت بالروم وجعلت السيادة في مصر للعرب

اما عمرو فكانت قدمهُ تزداد رسوخاً يوماً بعد آخر وكان يجبي الخراج بموجب العهد ولم يكن يأخذ شيئاً من اموال الكنائس ولم يسلب منها شيئاً قط بل كان يحميها مدة ولايتهِ كلها . ولما استولى على الاسكندرية خفف الترعة التي فيها كما فعل ثيودورس الهرطوقي قبلهُ . ورفع الجزية الى اثنين وعشرين الف دينار فزحم الناس تحت اثقالها ولم يكن لهم طاقة بها فاخذوا يختبئون . وجاء يوحنا الدمياطي الى الاسكندرية في اليوم الذي دخلها فيهِ عمرو وكان ثيودورس نائب الملك قد ولاهُ نيابة الاسكندرية فاعان يوحنا العرب حتى لا يخربوا المدينة وكان رؤوفاً بالمساكين فكان يساعدهم باموالهِ ويعزيهم ويرثي لحالهم

وخلع عمرو مينا وولّى مكانهُ يوحنا وكان مينا قد ضاعف الجزية التي ضربها عمرو على المدينة وهي اثنان وعشرون الف دينار فجبى مينا الهرطوقي اثنين وثلاثين الف دينار وسبعة وخمسين ديناراً ودفعها الى العرب . ولا يمكن وصف الحزن والنواح في المدينة فكان الناس يقدمون اولادهم بدل الاموال الباهظة التي كانت تجبى منهم كل شهر . ولم يكن لهم نصير بل تركهم الله واسلمهم الى ايدي اعدائهم

وجحد كثيرون من المسيحيين المنافقين الدين الارثوذكسي المقدس والمعمودية التي منها الحياة واعتنقوا مذهب العرب . . . . وجردوا اسلحتهم على المسيحيين منهم رجل اسمهُ يوحنا وهو خلقيدوني من دير سيتا فانهُ خلع رداءهُ الكهنوتي واعتنق الاسلام وجرّد سيفهُ على المسيحيين الذين بقوا على الايمان بربنا يسوع المسيح . انتهى